المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العدد 19A1 كانون الاول 2025
No.19A Dec. 2025

البيان النسوي في الحديث النبوي دراسة بلاغية في متن صحيح البخاري (نماذج مختارة)

د. محمد حاجم عبد
قسم اللغة العربية -كلية الآداب- جامعة كركوك
mohamedhachim@uokirkuk.edu.iq

الملخص:

إن للبيان النسوي حضور في البلاغة العربية ومكانة في الساحة الثقافية تتمثل بما ينطق به تلك النسوة من الأقوال وما يتفوهن به من بديع الحكم والأمثال وقد خصصت بحثي لدراسة النصوص التي وردت على ألسنة تلك النسوة في سياق أبلغ النصوص وأشرف الكتب ألا وهو الحديث النبوي إذ تناولتها بالتحليل البلاغي وأشرت فيها إلى الفن البياني الذي غدا صورة لامعة ولوحة مشرقة تدلّ على قيمة تلك الآثار وتثبت بلاغة أقوال تلك النساء التي لا تقل أهمية عن كلام الفصحاء والبلغاء من الرجال.

الكلمات المفتاحية: بلاغة النساء، بلاغة أمهات المؤمنين، بلاغة نساء أخريات

Feminist discourse in the Prophetic Hadith: A rhetorical study of the text of Sahih al-Bukhari, (selected examples

L. Dr. Muhammad Hajim Abd
College of literataure- university of kirkuk - Department of Arabic language

Abstract:

The feminine statement has a presence in Arabic rhetoric and a place in the cultural arena represented by what those women utter of sayings and the wonderful wisdom and proverbs they utter. I have devoted my research to studying the texts that came on the Sunnah of those women in the context of the most eloquent texts and the most honorable books, which is the Prophetic Hadith, as I dealt with it with rhetorical analysis and pointed out in it the rhetorical art whose images became brilliant and a bright painting that indicates the value of those effects and proves the eloquence of the sayings of those women, which are no less important than the speech of the eloquent and articulate men.

Keywords: Women's rhetoric,The eloquence of the Mothers of the Believers, is the eloquence of other women.

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبياناً لكل شيءٍ وتفصيلاً ومن أصدق من الله قيلاً والصلاة والسلام على رسوله صاحب السراج المنير والنور المبين وبعد:

فإن البيان النبوي قد بلغ من الفصاحة أوجّها ومن البيان أعلاه، فبيانه -عليه الصلاة والسلام- تالٍ لبلاغة القران وناهل من ينابيع ذكر الرحمن، وقد تسابقت أيدي الباحثين وتتوّقت نفوس الدارسين إلى الكشف عن سمات ذلك البيان الزاخر والقبس الساحر إلا أننا نجد الأنظار قد قصرت عن التنقيب عن تلك الآثار، وتباطأت عن قطف تلك الأزهار التي رافقت ذلك البيان النبوي ونهلت من ينابيع البديع المحمدي وهو ما وصل إلينا من أخبار تلك النسوة التي عاصرن تلك الحقبة وتشرفن بتلك الصحبة، لذا فقد آثر البحث إبراز بعض تلك الفنون البلاغية وإظهار تلك المسالك البيانية كونها متصلة بالحقبة التاريخية التي عاشها المصطفى –صلى الله عليه وسل- ومرتبطة بالمدة الزمنية التي يتنزل فيها الوحي وذلك بالوقوف على

نماذج من تلك النصوص والأقوال التي نطقت بها ألسنة هؤلاء النسوة والأحاديث التي خرجت من أفواه تلك العصبة من أمهات المؤمنين ونساء المسلمين مبتدئاً بالوقوف على بلاغة نسائه عليه الصلاة والسلام وأهل بيته كونهن أقرب النسوة إليه وأكثرهن استماعاً له، مما اكسبهن تلك البلاغة ونما عندهن تلك الفصاحة والتي عطّر بها حديثه وأسعد بها جليسه فغدا كلامهن يحاكي كلامه وحديثهن يفوق أقرانهن متأثرات بقبس النبوة ونور الوحي، ثم وقف الباحث على كلام غيرهن من أولئك النسوة التي عاصرن تلك الحقبة وعاشرن تلك القدوة ووقف كذلك على كلام غيرهن معتمداً في ذلك على ما ورد في الجامع الصحيح (صحيح البخاري) كونه أصح كتب الحديث متناً وأحسنها تصنيفاً، وقد حرصت على تحاشي دراسة ما تم الوقوف عليه من النصوص التي سبق تناولها على أيدي الباحثين بالدراسة والتحليل، ومتحرياً النصوص التي لم تدرس مجتهداً في الكشف عن النصوص التي تحمل عبارات بلاغية وصوراً بيانية، وقد قسمت بحثي إلى فقرتين تحت كلّ فقرة عدد من الأفرع الفرعية إذ خصصت الأولى منها لبيان بلاغة حديث أمهات المؤمنين، وجعلت الثانية للكشف عن بلاغة غيرهن من النساء.

أولاً: بلاغة أمهات المؤمنين:

1- بلاغة عائشة (رضي الله عنها): ومن نماذج تلك النصوص التي وقفنا عندها هي:

عن ((عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلْتَ وَادِيًا وَفِيهِ شَجَرَةٌ قَدْ أُكِلَ مِنْهَا وَوَجَدْتَ شَجَرًا لَمْ يُؤْكَلْ مِنْهَا فِي أَيِّهَا كُنْتَ تُرْتِعُ بَعِيرَكَ قَالَ فِي الَّذِي لَمْ يُرْتَعْ مِنْهَا تَعْنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَهَا)). [1]

في هذه المحاورة البديعة والمخاطبة اللطيفة نجد عائشة (رضي الله عنها) تلفت انتباه المصطفى –عليه السلام- عبر اسلوب الاستفهام غير الحقيقي الدال على جذب انتباه المخاطب وتقريره لما يبتغيه السامع من قصد وما يتتوق له المتكلم من الإجابة التي رام لها وساق هذا المثل لأجلها ثم أنك تراها(رضي الله عنها) قد طوت ذكر المشبه وهو (نفسها وضراتها)، واكتفت بذكر الطرف الآخر(المشبه به) فـ((من المركوز في الطباع أن الشيء لا يجتمع مع مضاده في آنً معاً أبداً، فلا تجد إلى التوفيق بينهما سبيلاً، فإذا ثبت أحدهما في ساحة ذهب الآخر، وإن أتيت بالثاني ذهب الأول))[2]، وهذا الأسلوب الذي نهجته عائشة (رضي الله عنها) في هذا المقام -الذي يتطلب من صاحبه العدل بين الأزواج، فضلاً عما يورثه التصريح بالمحبة من الغيظ والغيرة- أبلغ من التصريح وأملح وأجود من التوضيح، لذا نجدها (رضي الله عنها) تنأ بنفسها عن ذلك وتبعد عنها مداخل الشيطان وهذا يشير إلى مكانة البلاغة في الحديث وأهميتها في الكلام كما يعكس بلاغة الطيبة الطاهرة وفطنتها التي امتازت بها، لذا فهي بهذا المثل تقصد نفسها ولم تحترز بهذا المثل بأحد؛ لعلم المخاطب بأنها هي المقصودة؛ لكونها البكر الوحيدة من بين أزواجه[3]، يقول عبد القاهر (471ه) الجرجاني في بيان أهمية التمثيل في الكلام، وترك التصريح في الحديث والجنوح إلى التلويح: ((واعلم أنّ مما اتفق العقلاء عليه، أن «التمثيل» إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النّفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا، وقسر الطّباع على أن تعطيها محبّة وشغفا. فإن كان مدحا، كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغرّ المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب

[1]- صحيح البخاري: 554/12: رقم الحديث (5077).
[2]- ألا التنبيهية وعلاقتها بالسياق القراني، د. سعد عبد الرحيم ، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مج: 10، ع: 2، 2015: 299.
[3]- ينظر: الأسرار البلاغية في كتاب النكاح من صحيح البخاري (أحاديث مختارة)، د. آمنة الظريف محمد الأعصر، جامعة الأزهر كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط الجديدة، ع: 7: 2019.

وأجدر. وإن كان ذمّا، كان مسّه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشده، وحدّه أحدّ. وإن كان حجابا، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر. وإن كان افتخارا، كان شأوه أمدّ، وشرفه أجدّ، ولسانه ألدّ. وإن كان اعتذارا، كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسّخائم أسلّ، ولغرب الغضب أفلّ، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث. وإن كان وعظا، كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزّجر، وأجدر بأن يجلّي الغباية، ويبصّر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل)) [4]، ويقول ابن حجر (852ه) في وقوفه عند الحديث: ((وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مَشْرُوعِيَّةُ ضَرْبِ الْمَثَلِ وَتَشْبِيهِ شَيْءٍ مَوْصُوفٍ بِصِفَةٍ بِمِثْلِهِ مَسْلُوبَ الصِّفَةِ وَفِيهِ بَلَاغَةُ عَائِشَةَ وَحُسْنُ تَأَتِّيهَا فِي الْأُمُورِ وَمَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الَّتِي لَمْ يُرْتَعْ مِنْهَا أَيْ أُوثِرَ ذَلِكَ فِي الِاخْتِيَارِ عَلَى غَيْرِهِ فَلَا يَرُدُّ عَلَى ذَلِكَ كَوْنُ الْوَاقِعِ مِنْهُ أَنَّ الَّذِي تَزَوَّجَ مِنَ الثَّيِّبَاتِ أَكْثَرُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ عَائِشَةُ كَنَّتْ بِذَلِكَ عَنِ الْمَحَبَّةِ بَلْ عَنْ أَدَقِّ مِنْ ذَلِكَ))[5]، ومما يدل على بلاغتها كذلك كونها((ضربَتْ مثلاً للزوجة بِمَرْعى الإبل، فإن البعير إذا رعى شجرة أكل أطيب ورقها وترك أيبسه، ولأن الدواب تكره أن تأكل من مواقع أفواه دواب أخرى؛ لأن الراعية تترك في الورق والعشب رائحة اللعاب ونحوه، فجاء مثلاً كاملاً صالحاً لتفريق التشبيه؛ لأن الزوجة البكر كالشجرة التي لم يرتع منها، والثيب كالتي رتع منها، والزوج كالسائمة؛ فكان التمثيل شعريّاً تقريبيّاً وليس بحقيقي)) [6]

ثم شبهت نفسها بالشجر الذي لم تطأها السوام ولم ترتع منها الدواب بجامع بكورتهما وعدم تعرضهما إلى الولوج من قبلُ في كل من المستعار له وهو (الشجر التي لم يرتع منها) والمستعار منها (وهو الزوجة البكر –عائشة-) ثم استعارت اللفظ الدال على المشبّه به وهو الرعي (يرتع) في الحديث للمشبّه وهو مباشرته لها وإفضائه إليها ثم حذفته- أي حذفت المشبّه- وهو الزوجة البكر (عائشة) على سبيل الاستعارة التصريحية.

وعن ((مُعَاذَةُ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ لِعَائِشَةَ أَتَجْزِي إِحْدَانَا صَلَاتَهَا إِذَا طَهُرَتْ فَقَالَتْ أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ كُنَّا نَحِيضُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَأْمُرُنَا بِهِ أَوْ قَالَتْ فَلَا نَفْعَلُهُ)). [7]

في هذا الحديث نجد أنّ المحاورة قد جرت بين طرفين كليهما نساء، إذ استفتت هذه المرأة عن حكم شرعي فجاء الجواب لا علاقة له بالسؤال بل تعداه إلى محورٍ بلاغي وغرضٍ مجازيٍ آخر لذلك ترى في كلا الطرفين حصل السؤال وورد الاستفهام، ولاريب أن في إحداهما – وهو استفهام عائشة (رضي الله عنها) نكتة بلاغية تندرج تحتها معانٍ ثانوية يفصح عنها السياق ويقتضيها المقام إذ يلّوح فيها الطرف الآخر تلويحاً عجيباً ينبه السائل ويرشده إلى ما ينبغي أن يستفتي عنه ويزجره عن الأسئلة التي فيها تنطع ولم توجبها الشريعة السمحاء، يقول د. فضل حسن عبّاس: ((إن في أسلوب الاستفهام الإنكاري أغراضاً بيانية للمتكلم والمخاطب معاً، فبقدر ما يدل على ثقة من المتكلم بنفسه فيما قاله، يدل على إحراج المخاطب؛ لأنك بأسلوب الاستفهام تترقب منه جواباً، وليس كذلك أسلوب النفي الصريح، إذ باستطاعته أن يفر من الجواب ويصمت)) [8]، ويقول كذلك: ((وفائدة أخرى للاستفهام الإنكاري، وميزة على النفي الصريح، هي أن المتكلم عندما يلقي كلامه بصيغة الاستفهام، فإن ذلك يدل على الثقة التي تملأ نفسه؛ لأنه يلقي كلامه وهو يدرك أن لو كان في كلامه أدنى ريب؛ لرده عليه قائله جواباً على استفهامه)). [9]

كذلك في تقديم الخبر على المبتدأ في قولها (أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ) فيه زجر وردع وتنبيه على شأن هؤلاء الفرقة والتحذير من مسلكهم والابتعاد من معتقداتهم وشبههم، ولعل في تقديمه –أي الخبر- إشارة كذلك إلى

---

[4]- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: 85-88.
[5]- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني: 121/9.
[6]- النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، محمد الطاهر ابن عاشور: 197.
[7]- صحيح البخاري: 331/1، رقم الحديث (321).
[8]- البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، فضل حسن عبّاس: 199.
[9]- المصدر نفسه: 199.

أنك أيتها السائلة إن بقيتِ واستمريتِ على ذلك فأنه سيلحقك وصفهم ويلتصق بك وسمهم، يقول الكرماني(786ه) عند وقوفه على هذا الحديث((والاستفهام الذي استفهمته عائشة هو استفهام انكاري أي هذه طريقة الحرورية وبئست الطريقة، فإن قلت حرورية خبر المبتدأ الذي هو أنت فلم قدم عليه، قلت ليفيد الحصر أي أحرورية أنت لا غير حرورية أي خارجية لا سنية))[10]، ويقول العيني(855هـ) عند وقوفه : ((قَوْلهَا " أحرورية أَنْت " من الْجُمْلَة من الْمُبْتَدَأ وَهُوَ أَنْت وَالْخَبَر وَهُوَ أحرورية دخلت عَلَيْهَا همزَة الِاسْتِفْهَام الإنكارية وَفَائِدَة تقدم الْخَبَر للدلالة على الْحصْر أَي أحرورية أَنْت لَا غير))[11].

وعن((هِشَامٌ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، قَالَتْ عَائِشَةُ: ابْنَ أُخْتِي «مَا تَرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّجْدَتَيْنِ بَعْدَ العَصْرِ عِنْدِي قَطُّ» .[12]))

في هذا الحديث نجد عائشة (رضي الله عنها) تخبر عن صلاته –عليه الصلاة والسلام- وتذكر تلك الركعتين اللتين كان رسول الله –ﷺ- مواظباً عليهما إلا أنها لم تذكر لفظة الصلاة ولم تقل لم يترك تلك الصلاة التي بعد العصر ولم تقل كذلك الركعتين بل آثرت التعبير بالجزء وهو (السجود) -الذي هو أحد أركان الصلاة- وأرادت به الكل وهو (الصلاة) بقيامها وركوعها وسجودها والجلوس لها، ولعلها إنما ذكرت هذه الجزئية من الصلاة دون غيرها من الأركان؛ لأن السجود هو روح الصلاة وجوهرها إذ يتحقق فيه كما الخضوع والذل لله رب العالمين ((وذلك لأن هيئة الساجد أكمل هيئة في تواضعه لمولاه))[13] حتى قال – عليه الصلاة والسلام-: ((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ))[14]

ويقول صاحب التنوير بعد وروده لقوله عليه الصلاة والسلام: ((عَلَيْكَ بِالسُّجُودِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بها خَطِيئَةً))[15]: ((هذا الحديث من أدلة فضل السجود على غيره من الأركان))[16].

و((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: رَكْعَتَانِ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُهُمَا سِرًّا وَلاَ عَلاَنِيَةً: رَكْعَتَانِ قَبْلَ صَلاَةِ الصُّبْحِ، وَرَكْعَتَانِ بَعْدَ العَصْرِ))[17].

في هذا الحديث نجد عائشة (رضي الله عنها) كذلك تذكر صلاته -عليه الصلاة والسلام- التي صلاهما وداوم على فعلهما لكنها ذكرت الجزء(الركوع) وأرادت به الكل وهو الصلاة فقالت ركعتان ولم تقل صلاتان وإنما صرحت بالركوع دون ذكر الصلاة لأهمية هذا الركن كذلك فهو من أركان الصلاة التي لا تصح الصلاة إلا به، يقول الكرماني (ت 786هـ) : ((قوله (ركعتان) أي صلاتان لأنه فسرها بأربع ركعات فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل))[18]، وهذا أي -اطلاق الركوع على الصلاة- مثاله كثير في القران الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ نز نم نن ني ىٰ ير ﴾[19] يقول الزمخشري(538هـ) في وقوفه عند هذه الآية: ((ويجوز أن يراد بالركوع: الصلاة، كما يعبر عنها بالسجود))[20]، وقال تعالى﴿ صم ضج

10- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، محمد بن يوسف بن علي الكرماني: 193/3.
11- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود بن أحمد بن موسى العينى: 300/3.
12- صحيح البخاري: 121/1، رقم الحديث (591).
13- التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِير: محمد بن إسماعيل بن صلاح الكحلاني: 8/3.
14- صحيح مسلم: 350/1، رقم الحديث (482).
15- سنن ابن ماجه: 423/2، رقم الحديث: (1422).
16- التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِير: 280/7.
17- صحيح البخاري: 3/2، رقم الحديث(592).
18- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: 226/4.
19- سورة البقرة: الآية:43.
20- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: الزمخشري جار الله: 133/1.

ضح ضخ ضم طح ظم عج عم غج غم فج فح [21]ثم مجيئها (رضي الله عنها) بالطباق (طباق الايجاب) في قولها (سراً وعلانية) لغرض بديع ومقصد رفيع – إلى جانب ما تحمله هذا العبارة من تناسق صوتي وانسجام لفظي– وهو تأكيدها وبيانها على حرص المصطفى -عليه الصلاة والسلام- في المداومة على هاتين الصلاتين وعدم التفريط فيهما، وهذا الأسلوب هو أكثر تأثيراً في المتلقي وأبعد رسوخاً في ذهن السامع.

كذلك قد أوجزت في حديثها بقولها (رَكْعَتَانِ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُهُمَا سِرًّا وَلاَ عَلاَنِيَةً) ثم بيّنت وفصلّت وقت هاتين الصلاتين بقولها (رَكْعَتَانِ قَبْلَ صَلاَةِ الصُّبْحِ، وَرَكْعَتَانِ بَعْدَ العَصْرِ) ولا شك أنّ هذا التفصيل في هذا المقام هو أبلغ مما لو أوجزت؛ كون ذلك الأسلوب هو أكثر تشويقاً المتلقي -الحريص على متابعة رسوله (ﷺ)- في معرفة هاتين الصلاتين.

و((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّحَ سُبْحَةَ الضُّحَى»، وَإِنِّي لَأُسَبِّحُهَا)). [22]

في هذا الحديث نجد عائشة –رضي الله عنها- تخبر عن صلاة غير الفريضة وهي الصلاة التي تكون في وقت الضحى إلا أنها لم تقل الصلاة التي تصلى في الضحى بل نسبتها إلى الضحى وإنما أسندتها إلى الضحى؛ لأنها الوقت الذي تكون فيه هذا الصلاة وهذا جائز في لغة العرب ومستعمل في كلامها فهم يقولو صلاة الظهر ويريدون بها الصلاة التي تكون عند وقت الظهر وصلاة العصر وغيرها كذلك من الصلوات الأخرى والأعمال التي تحدث في ذلك الوقت وتحصل في تلك الأزمان، يقول الشاعر: [23]

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

إذ أسند الشاعر السرور والحزن إلى الزمن مع كونه لم يحدثهما بنفسه لكن لما كانا واقعين فيه نسبهما إليه. [24]

وعن ((مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَيُّ العَمَلِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: «الدَّائِمُ»، قُلْتُ: مَتَى كَانَ يَقُومُ؟ قَالَتْ: «كَانَ يَقُومُ إِذَا سَمِعَ الصَّارِخَ»)). [25]

فهي تجيب عن وقت قيام الرسول (ﷺ) للصلاة في الليل يكون عند سماعه الديك إلا أنها آثرت التعبير عما يلزم من وجود الديكة وهو صراخها وصياحها، وإنما عبرت بالصراخ واكتفت به دون الديك؛ لأنه – الصراخ- هو المراد في هذا المقام كونه آلة التنبيه التي توقظ النام وتنبه الغافل، وفي استعمالها كذلك لهذه المفردة نظراً لما توحي أصواتها من استعلاء اطلاق تلائم سياق المقام والحال وهذا إن دلّ على شيء فهو دليل أكيد وشاهد شهيد على فصاحة الطاهرة الكريمة وبلاغة الزوجة العفيفة الفقيهة.

و((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «مَا أَلْفَاهُ السَّحَرُ عِنْدِي إِلَّا نَائِمًا» تَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)). [26]

فهي تخبر عما يفعله النبي (ﷺ) عند فراغه من قيام الليل بأنه كان يضطجع وينام إلا أنها أسندت المجيء والوجدان- وجدانه أي الرسول- قد نام ، فالسحر في الحقيقة ليس هو الذي وجد الرسول قد نام بل من كان

---

[21]- سورة المائدة: الآية:55.
[22]- صحيح البخاري: 58/2 رقم الحديث (1177).
[23]- البيت في نفح الطيب وقد نسبه لأبي البقاء الرندي. ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني : 487/4.
[24]- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي: 255.
[25]- صحيح البخاري: 50/2، رقم الحديث (1132).
[26]- صحيح البخاري: 51/2، رقم الحديث (1133).

فيه وهم أهله إلا أنها أسندته إلى السحر لحصول النوم والفعل فيه، وهذا سائق في لغة العرب وشائع على لسان أهلها فهم يسندون الفعل إلى الزمن ويريدون ما وقع في وقته وحينه، يقول شاعرهم: [27]

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فإنك ترى قد أسند ما سيظهر له ويحصل من الأمور في المستقبل إلى الأيام، وليست هي التي تظهر له ولكن لما كانت سيحصل له فيها من تلك الحوادث واقع فيها أسنده إليها وربطها به، ويقول طرفة: [28]

ألا إنما أبْكي ليومٍ لقِيتُهُ ... بجُرْثُمَ، قاسٍ، كلُّ ما بَعدَهُ جَلَلْ

و((عَنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كَيْفَ كَانَتْ صَلاَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَنَامُ أَوَّلَهُ وَيَقُومُ آخِرَهُ، فَيُصَلِّي، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَذَّنَ المُؤَذِّنُ وَثَبَ، فَإِنْ كَانَ بِهِ حَاجَةٌ، اغْتَسَلَ وَإِلَّا تَوَضَّأَ وَخَرَجَ)). [29]

فهي تبين كيفية نومه -عليه الصلاة والسلام- وتقسيمه الليل إلى العبادة والنوم والجماع، إلا أنها لما أرادت الإخبار عن خروجه للصلاة وهو جنب وعليه أثر الجماع وارت ذلك بالكناية بقولها (فَإِنْ كَانَ بِهِ حَاجَةٌ، اغْتَسَلَ) وفي هذا دليل عفتها ورفيع قدرها كما يشير إلى بلاغتها فإنها تصرح في موضوع يحتاج فيه الكلام إلى بيان ويتطلب السياق إلى البرهان، أما هنا فالمقام فيه يفهم بالإشارة ويتبين للسامع من خلال القرينة وهي لفظة (اغتسل) الدالة على وجود الجماع[30]، يقول بدر الدين بن مالك(686ه) مبيّنا متى يتأتى بالكناية وما الداعي لمجيئها في الكلام: ((ولا يترك التصريح بالشيء إلى الكناية عنه في بليغ الكلام إلا لتوخي نكتة كالإيضاح .....أو الستر.... ..أو عن الفاحش بالظاهر أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن...)). [31]

وعن ((عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: حَجَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَفَضْنَا يَوْمَ النَّحْرِ، فَحَاضَتْ صَفِيَّةُ فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا مَا يُرِيدُ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا حَائِضٌ، قَالَ: «حَابِسَتُنَا هِيَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَاضَتْ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ: «اخْرُجُوا»)). [32]

فهي تخبر عن إفاضة الرسول -ﷺ- بعد تحلله من الحج وطلبه الجماع من زوجه (صفيه –رضي الله عنها-) إلا أنها –رضي الله عنها- لم تصرّح بذلك بل كنّت عن ذلك بقولها ((فَحَاضَتْ صَفِيَّةُ فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا مَا يُرِيدُ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِهِ))، وهذا دليل عفتها وبلاغتها –رضي الله عنها- وحسن اختيارها للحديث وتصرفها في طرق الكلام بحسب ما يقتضيه السياق ويتطلبه المقام، يقول العيني(ت855ه): ((وَهَذَا كِنَايَة عَن إِرَادَة الْجِمَاع، وَهَذَا من محَاسِن مُرَاعَاة عَائِشَة طرق كَلَامهَا حَيْثُ لم تصرح باسم من أَسمَاء الْجِمَاع)). [33]

و ((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّفُ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ صَلاَةِ الصُّبْحِ حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: هَلْ قَرَأَ بِأُمِّ الكِتَابِ؟)) [34]

فهي تخبرنا عن كيفية صلاته –عليه الصلاة والسلام- لراتبة الفجر القبلية، حتّى أنها تتسأل في خاطرها وتحدّث نفسها هل قرأ سورة الفاتحة أم لم يقرأ وهذا الاستفهام التي كانت تحدّث به نفسها لم يكن حقيقياً بل

27- ديوان طرفة بن العبد: 29.
28- ديوان طرفة بن العبد: 62.
29- صحيح البخاري: 53/2، رقم الحديث (1146).
30- ينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، عبيد الله بن محمد عبد السلام المباركفوري:225/4.
31- المصباح في المعاني والبيان والبديع:147.
32- صحيح البخاري: 175/2، رقم الحديث (1733).
33- عمدة القاري: 70/10.
34- صحيح البخاري: 57/2، رقم الحديث (1171).

يحمل في طياته التعجب والاستغراب من تلك الصلاة التي لا تشابه بقية صلواته في قيام الليل وغيرها فهي لما أرادت المبالغة في بيان قصر وقت تلك الصلاة استفهمت بتلك الصيغة وتساءلت عنها بتلك الطريقة، وقد حصل المقصود في بلاغة هذا الاستفهام وترّسخ ذاك المفهوم في الآذان عند المتلقين والسامعين، إذ في هذا الاستفهام من البلاغة ما يقوم به الإيضاح والإفصاح أعظم بكثير مما لو سلكت شُعب أخرى من الكلام يقول القرطبي(ت656 هـ): ((وقول عائشة: إنه كان يخففهما حتى إني أقول: هل قرأ فيهما بأمّ القرآن؟ ليس معنى هذا أنها شكّت في قراءته - ﷺ - فيها بأمّ القرآن؛ لأنه قد ثبت عنه - ﷺ - أنه قال: لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن ، وإنما معنى ذلك: أنه - ﷺ - كان في غيرها من النوافل يقرأ بالسورة، ويرتّلُها حتى تكون أطول من أطول منها ، بخلاف فعله في هذه، فإنه كان يخفف أفعالها وقراءتها، حتى إذا نُسبت إلى قراءته في غيرها كانت كأنها لم يقرأ فيها. وقد دلّ على صحة هذا ما في حديث أبي هريرة: أنه - ﷺ - كان يقرأ فيهما)).[35]

و((عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لعروة : ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه و سلم نار . فقلت يا خالة ما كان يعيشكم ؟ قالت الأسودان [36] التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه و سلم جيران من الأنصار كانت لهم منائح وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه و سلم من ألبانهم فيسقينا .[37]))

لو تأملنا هذا الحديث ونقّبنا عما فيه من مضامين بلاغية وأساليب بيانية لوجدنا فيه من الفصاحة والبلاغة لسيدتنا عائشة –رضي الله- حيث عبّرت عما كان يلاقونه من الجوع نتيجة قلة الطعام وافتقاده إلا من التمر والماء فهي لما أرادت المبالغة في بيان ما حلّ في بيوتهم من العوز والجوع نتيجة عدم وجود ما يملي بطونهم من الأكل عبّرت بعدم ايقاد النار في بيوتهم وهذا كناية عن عدم طبخهم وصنعهم الطعام، نتيجة لقلة ذات اليد وليس نتيجة بخل بل من مسكنة وعوز، وفي هذا التعبير من الفصاحة والبيان إذ التعبير بعدم ايقاد النار إيحاء كبير ودليل أكيد على عدم وجود الطعام في بيوتهم ولا سيما اللحم، فهي بهذه اللفظة قد احترزت من كون بيوتهم ليس فيها من طعام غير التمر والماء، فلو قالت ليس لنا طعام لعمت اللفظة كل شيء من جنس الطعام، لكن التعبير بعدم إيقاد فيه قوّة في التأثير لدى المتلقي من كون طول هذه المدة لا يأكلون غير شيء واحد ليس فيه لحم وادام، وفيه دليل على عدم امتلاكهم للشياه أو الإنعام، الذي عند غيرهم كثير وفير.

ثم إجابتها لعروة عما كانوا عليه يعيشون ومنه يقتاتون فأجابته بأن الأسودان (التمر والماء) كان طعامهم وفي تعبيرها عن التمر والماء بلفظة غلّبت فيها إحدى اللفظتين وهي الماء على التمر، وفي جمعها لهاتين اللفظين نكتة بلاغية وصورة بيانية بيّنها الطيبي(ت743هـ)(رحمه الله) في وقوفه عند هذه المفردة بقوله: ((الأسودان التمر والماء، والسواد للتمر دون الماء فنعتا بنعت واحد. والعرب تفعل ذلك في الشيئين يصطحبان ويسميان معا باسم الأشهر منهما. هذا قول أصحاب الغريب، وقد بقي عليه بقية؛ وذلك أنهم لم يبينوا وجه التسوية بين الماء والتمر في العوز، ومن المعلوم أنهم كانوا في سعة من الماء وإنما قالت ذلك؛ لأن الري من الماء لم يكن ليحصل لهم من دون الشبع من الطعام؛ فإن أكثر الأمم لا سيما العرب، يرون شرب الماء على الريق بالغا في المضرة فقرنت بينهما لعوز التمتع بأحدهما بدون الإصابة من الآخر، وعبرت عن الأمرين - اعني الشبع والري - بفعل واحد كما عبرت عن التمر والماء بوصف واحد)).[38]

---

[35]- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: 362/2.

[36]- قال ابن سلام: ((الأسودان: التمر والماء» وإنما السواد للتمر وحده، وكقولهم: «سنة العمرين» وإنما هما: «أبو بكر» و «عمر» ، وهكذا كلام العرب إذا كان الشئ مع غيره فربما سموهما جميعًا باسم أحدهما)). غريب الحديث: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي: 150/5.

[37]- صحيح البخاري: 153/3، رقم الحديث (2567).

[38]- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي: 2849/9.

وعن ((عائشة .....قَالَتْ: وَقَدِمْنَا المَدِينَةَ وَهِيَ أَوْبَأُ أَرْضِ اللَّهِ، قَالَتْ: فَكَانَ بُطْحَانُ يَجْرِي نَجْلًا تَعْنِي مَاءً آجِنًا)). [39]

فهي تخبر عما كانت عليه المدينة –المدينة المنورة- ـ يثرب قديماً- من الأوبة والأمراض، ثم بعد ذلك تنقل إلى ذكر الماء الذي في وادي بطحان فتصف ماءه بأنه يجري نجلاً، إلا أنها لم تستند الجريان للماء بل أسندته إلى مكانه وهو وادي وهذا يسمى بالإسناد إلى المكان وهو معروف في لغة العرب ومشهور عند أرباب الفصحاء، ومتداول على ألسنة الشعراء والبلغاء، يقول شاعرهم: [40]

مَلكْنا فكانَ العفوُ منا سجِيَّةً * فلما مَلكتُم سالَ بالدمِ أبطُحُ

و((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «كُنْتُ أَغْسِلُ الجَنَابَةَ مِنْ ثَوْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَخْرُجُ إِلَى الصَّلاَةِ، وَإِنَّ بُقَعَ المَاءِ فِي ثَوْبِهِ»)). [41]

فهي –رضي الله عنها- تُخبر عما كانت تفعله مع رسول الله حين يريد أن يخرج إلى الصلاة و على ملابسة المني التي هي أثر الجماع أو الجنابة، لكنها لم تذكر لفظة المني وتقول بأني كنت أغسل الجنابة من ثوبه –عليه الصلاة والسلام- بل عدلت عنها بلفظ الجنابة، وهو معلوم عند السامع أن المراد هو المني، وإنما ذكرت الجنابة؛ لأنها السبب الذي ينتج عن الجنابة، فهي ذكرت السبب ومرادها المسبب عنه وهو المني وهذا بلاغتها – رضي الله عنها- فهي قد استعملت أحد الفنون البيانية ومالت إلى استعمال المعاني الثانوية، يقول القسطلاني (923هـ): (((عن عائشة) رضي الله عنها (قالت): (كنت أغسل الجنابة) أي أثرها لأن الجنابة معنى فلا تغسل أو عبرت بها عن ذلك مجازًا أو المراد المنيّ من باب تسمية الشيء باسم سببه، فإن وجوده سبب لبعده عن الصلاة ونحوها)) [42]، وتكمن بلاغة المجاز هنا بإبراز قوة بين السبب وهو (الجنابة) وأثرها وهو المني، إذ لا يخفى ما فيه هذه اللفظة من الإيحاء بالعفة والستر من ذكر لفظ المني، ومثل هذا التعبير سائغ في لغة العرب، وشائع على ألسنة شعرائها، فكثيراً ما كانوا يميلون إلى تلوين كلامهم بهذه الصبغة وتزين عباراتهم بمثل تلك الفكرة، لم يكن ذلك مجرد وضع مفردة مكان أختها بل لنكتة نفيسة وغاية نبيلة لا يهتدي إليها إلا من لطف طبعه وصفت قريحته، ومن ذلك ما قاله شاعرهم: [43]

ضعيفُ العصا بادي العروقِ ترى لهُ عَلَيْهَا إِذَا مَا أَجْدَبَ النَّاسُ إِصْبَعَا

فهو قد أطلق الأصبع ومراده أي أنك ترى له عليها أثر حسناً. [44]

و((عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ، فِي تَنَعُّلِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطُهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ»)). [45]

في هذا الحديث نجد عائشة –رضي الله عنها- تصف هدي المصطفى –عليه الصلاة والسلام- في تقديمه اليمين في كلّ أموره لكنها نجده تخصّ عددٌ من الأمور التي يتيمان فيها فذكرت التيمن والتنعل والترجل

---

[39]- صحيح البخاري: 23/3، رقم الحديث (1889).
[40]- البيت في زهر الاكم، وقد نسبه للشاعر الحيص بيض. ينظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي: 158/2.
[41]- صحيح البخاري: 55/1، رقم الحديث (229).
[42]- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني: 296/1.
[43]- : ديوان الراعي النميري: 162.
[44]- ينظر: أسرار البلاغة في علم البيان: 250.
[45]- صحيح البخاري: 45/1، رقم الحديث (168).

والطهور ثم عطفت عليه وشفعته بقوله (شأنه كله) إذ عطفت تلك الأمور العامة على تلك الأشياء الخاصة (عطف العام على الخاص) مع كونها من جنسها ولا بد في تخصيص تلك الأعضاء دون غيرها من سرٍ بلاغي و فيضٍ بياني وهذا ما أشار إليه الطيبي (743هـ) وبيّنه بقوله: ((أقول: قوله: ((في طهوره، وترجله، وتنعله)) بدل من قوله: ((في شأنه)) بإعادة العامل، ولعله ﷺ إنما بدأ فيها بذكر الطهور لأنه فتح لأبواب الطاعات كلها. فبذكره يستغنى عنها، كما سبق فقوله: ((الطهور شطر الإيمان))، وثنى بذكر الترجل وهو يتعلق بالرأس، وثلث بالتنعل وهو مختص بالرجل؛ ليشمل جميع الأعضاء والجوارح، فيكون كبدل الكل من الكل)). [46]

و((عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ» [ص:7] قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا)). [47]

حين نقف عند قول عائشة –رضي الله عنها- في هذه الجزئية من الحديث نجدها تصف ما يحدث للنبي – عليه الصلاة والسلام- من الشدّة والثقل عند نزول الوحي، فيأخذه من الكرب ولما أرادت المبالغة في بيان ما عليه المصطف- ﷺ- من الكرب والشدّة شبّهت كثرة تصبب العرق ونزوله من جبينه بالعرق المفصود بجامع المبالغة والكثرة في السيلان بين سيلان الدم من العِرق وكثرة تصبب العَرق من الجبين على طريق الاستعارة التصريحية، إذ حذفت العِرق وأشارت إليه بشي من لوازمه وهو الفصد [48] يقول الكرماني (786هـ): ((وشبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة في كثرة العرق كما أن باب التفعل يدل عليها وكذا ذكر التمييز وهو عرقا لأنه توضيح بعد إبهام وتفصيل بعد إجمال وكذا قولها في اليوم الشديد كما أن فيه دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي)). [49]

و((عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ مِنْ جَنَابَةٍ)) [50]

فهي تبيّن كيف كان غسلهما -هي ورسول الله- من الجنابة فتذكر أنهما يغتسلان من ماء الإناء الواحد، إلا أنها لم تذكر لفظ الماء بل اكتفت بذكر الإناء وإنما ذكرت الإناء دون اشتمالها على الماء، لأن هذا معلوم عند المخاطب وجار استعماله في اللسان العربي، فهم يطلقون المحل ويريدون الحال (ما يحل بذلك الإناء من ماء أو خمر) وذلك بحسب السياق الذي يرد فيه النص، والمراد من الإناء في هذا الحديث هو الماء الذي يغتسلون به بقرينة وجود لفظ الغسل من الجنابة فهو لم يشكل على السامع أو المتلقي بكون مرادها من الإناء هو الماء دون الخمر و اللبن أو غيرها من الأشربة لوجود هذه القرينة، ومثل هذا كثير وهو(إطلاق المحل على الحال) في القران الكريم وجار على لسان الشعراء، ومن ذلك إطلاق الكأس على الخمر في قوله تعالى في وصفه لنعيم أهل الجنة:ﱡ ﱠ [51])، يقول ابن عاشور(ت1393هـ) في وقوفه عند تفسير هذه الآية : ((والكأس: بِالْهَمْزَةِ الْإِنَاءُ الْمَجْعُولُ لِلْخَمْرِ فَلَا يُسَمَّى كَأْسًا إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهِ خَمْرٌ، وَقَدْ تُسَمَّى الْخَمْرُ كَأْسًا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ)) [52]، ويقول الأعشى: [53]

46- الكاشف عن حقائق السنن، الطيبي: 797/3.
47- صحيح البخاري: 6/1، رقم الحديث (2).
48- قال ابن فارس: ((الْفَصْدُ، وَهُوَ قَطْعُ الْعِرْقِ حَتَّى يَسِيلَ)). مقاييس اللغة: 507/4.
49- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: 28/1.
50- صحيح البخاري: 61/1، رقم الحديث (263).
51- سورة الإنسان: الآية: 5.
52- التحرير والتنوير: 380/29.
53- ديوان الأعشى: 24.

وَكَأسٍ كمَاءِ النّيّ باكَرْتُ حَدّها، ** بِغِرّتِهَا، إذا غَاب عَني بُغَاتُهَا

و((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ.....قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا، خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ [ص:174]، وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ، فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا، فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لاَ أَرَى مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي البَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ.....)).[54]

فهنا نقف عند قول أم مسطح الذي روته عنها عائشة –رضي الله عنها- والذي قالت فيه (تعس مسطح) فهي هنا تخبر عن تعاسته لكن قصدها الذي ورته بأثواب هذه العبارة هو الدعاء عليه يقول ابن الأثير(606ه): في وقوفه عند هذه العبارة: ((يُقَالُ تَعِسَ يَتْعَسُ، إِذَا عثَر وانكَبَّ لِوَجْهِهِ، وَقَدْ تُفتح «1» الْعَيْنُ، وَهُوَ دُعاء عَلَيْهِ بِالْهَلَاكِ)) [55]، وعندما قالت ذلك زجرتها عائشة – رضي الله – بقولها «بِئْسَ مَا قُلْتِ، تَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا» فكلامها وإن كان فيه استفهام إلا أنه خرج إلى الزجر والنهي عن سب أولئك الصحابة وتنبيه المخاطب (أم مسطح) على عظم شأن من تناله ألسنة هؤلاء القوم الذين قاتلوا مع رسول الله في معركة بدر وكأنها تذكّرها بقول رسول عن أهل بدر: ((لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةُ، أَوْ: فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ))[56]، وقد فهمت أم مسطح من كلام عائشة أنها لم تكن

54- صحيح البخاري: 173/3، رقم الحديث (2661).

55- النهاية في غريب الحديث والأثر: 190/1.

56- هذا بعض الحديث ونصه: ((عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَكُلُّنَا فَارِسٌ قَالَ انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنْ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَأَدْرَكْنَاهَا تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْنَا الْكِتَابُ فَقَالَتْ مَا مَعَنَا كِتَابٌ فَأَنَخْنَاهَا فَالْتَمَسْنَا فَلَمْ نَرَ كِتَابًا فَقُلْنَا مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُجَرِّدَنَّكِ فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ أَهْوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ فَأَخْرَجَتْهُ فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ قَالَ حَاطِبٌ وَاللَّهِ مَا بِي أَنْ لَا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا لَهُ هُنَاكَ مِنْ عَشِيرَتِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَ وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا فَقَالَ عُمَرُ إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَدَعْنِي فَلِأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ لَعَلَّ اللَّهَ

تعلم ما خاض به مسطح ومن معه من الفلك لذلك تراها وكأنها تيقظها من سباتها فتناديها بما يستعمل مع البعيد من أحرف النداء وهو ((يَا هَنْتَاهْ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا)) مع أن المخاطب – وهو عائشة- قريبة من منها وهي بجنبها لكنها لما لم تعلم بما قيل في شأنها مع انتشار خبرها في المدينة نبّهتها بهذه الأحرف، يقول ابن حجر (852ه): ((قَالَتْ أَيْ هَنْتَاهْ أَيْ حَرْفُ نِدَاءٍ لِلْبَعِيدِ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ لِلْقَرِيبِ حَيْثُ يَنْزِلُ مِنْهُ منزل الْبَعِيدِ وَالنُّكْتَةُ فِيهِ هُنَا أَنَّ أُمَّ مِسْطَحٍ نَسَبَتْ عَائِشَةَ إِلَى الْغَفْلَةِ عَمَّا قِيلَ فِيهَا لِإِنْكَارِهَا سَبَّ مِسْطَحٍ فَخَاطَبَتْهَا خِطَابَ الْبَعِيدِ وَهَنْتَاهْ بِفَتْحِ الْهَاءِ وَسُكُونِ النُّونِ وَقَدْ تُفْتَحُ بَعْدَهَا مُثَنَّاةٌ وَآخِرُهُ هَاءٌ سَاكِنَةٌ وَقَدْ تُضَمُّ أَيْ هَذِهِ وَقِيلَ امْرَأَةٌ وَقِيلَ بُلْهَى كَأَنَّهَا نَسَبَتْهَا إِلَى قِلَّةِ الْمَعْرِفَةِ بِمَكَائِدِ النَّاسِ وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ تَخْتَصُّ بِالنِّدَاءِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ نَكِرَةٍ وَإِذا خُوطِبَ الْمُذكر قيل ياهنة)) .[57]

ولو قفنا على قول عائشة عند وصفه لنزول الوحي على رسول الله وما يصيبه من ثقل الوحي حتّى يتنزل من العرق في اليوم الشديد البرودة لوجدناها تصف عرقه –عليه الصلاة والسلام- فتشبهته بالجمان في صفائه وحسنه [58] وجمال منظره، فكأنما لم تجد شيئاً أصفى منه ولا منظراً أبهى منه إلا هذه المادة البهيجة، والدرة الثمينة لذلك ترى العرب يشبّهون ما يستحسنون منظره ويبهرهم جوهره بالجمان ((اللؤلؤة المتخذة من الْفضة))[59]، ومن ذلك ما قاله الشاعر:[60]

هوى كادت العينان يفرط منهما ... له سنن مثل الجمان المنظم

وتقول الخنساء كذلك: [61]

يا عَينِ جودي بدَمْعٍ غَيرِ مَنْزُورِ مثلِ الجُمانِ على الخَدّينِ مَحدورِ

2- بلاغة خديجة (رضي الله عنها): ومن نماذج ما قالته:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1]- حَتَّى بَلَغَ - {عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 5] " فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ: «يَا خَدِيجَةُ، مَا لِي» وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، وَقَالَ: «قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ.....)).[62]

في هذا الحديث نقف عند قول خديجة (رضي الله عنها) الذي أجابت رسول الله بقلب ثابت وإيمان راسخ، أمّنته من الخوف ثم بشّرته بعدم الخزي بل الرفعة والسناء، وفي هذا دليل فصاحتها وعظم بيانها، ثم لما رأت ما حصل معه من الخوف بدأت تعدّد له صفات الخير وتحصي له مكارم الأخلاق التي كان

اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)).
صحيح البخاري: رقم الحديث (3983): 7/10.

[57]- فتح الباري: 466/8.

[58]- ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي: 112/17.

[59]- غريب الحديث، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي:1 /175.

[60]- ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب: 1168/2.

[61]- ديوان الخنساء: 59.

[62] صحيح البخاري: 29/9، رقم الحديث (6982).

عليها –عليه الصلاة والسلام- فهي لم تكني عن تلك الخصال بأن تكتفي بالقول إنك تحمل مكارم الأخلاق أو إنك صاحب مكارم جليلة؛ لأن المقام يستدعي هذا التعدد ويتطلب مثل هذا التنوع، كذلك في تأكيدها الخبر بالقسم لتطمأن المخاطب وتثبّت فؤاده – ﷺ- وتنزل السكينة على قلبه فهي ليست مجرد دعوى منها تخبره عن ذلك مجرد دعوى تجعل المخاطب غلق متردد القبول بل أخبرته باليقين وبشّرته بالفوز المبين وكأنها –رضي الله عنها – تعلم ما سيحصل للمصطفى – عليه الصلاة والسلام- بعد ذلك أنه التأييد الإلاهي والتوفيق الرباني، فلم يخيّب ظنها الكريم -ﷻ- بل قد أعطاه المزيد، وجعل له العقبى الحميد.

ولو تأملنا هذا الذي حصل مع النبي –ﷺ- لوجدناه يقرب من تلك القصة التي حصلت مع أم موسى وربها الحفيظ العليم حين جاءه الخوف ونزل بها الكرب عندما أرسلت موسى الرضيع في اليم، إذ جمع بين النهي والبشارة في موضع واحد فقال ربّنا -تبارك وتعالى:ﱡ نم نى ني هج هم هى هي يج يح يخ يم يى يي ذٰ رٰ ىٰ ٌّ ٍّ ئر ئز ﱠ.[63]

3- بلاغة ميمونة (رضي الله عنها) من نماذج قولها:

عن ((مَيْمُونَةَ بِنْتِ الحَارِثِ، قَالَتْ: «وَضَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُسْلًا وَسَتَرْتُهُ، فَصَبَّ عَلَى يَدِهِ، فَغَسَلَهَا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ» - قَالَ: سُلَيْمَانُ لاَ أَدْرِي، أَذَكَرَ الثَّالِثَةَ أَمْ لاَ؟ - ثُمَّ أَفْرَغَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ، فَغَسَلَ فَرْجَهُ، ثُمَّ دَلَكَ يَدَهُ بِالأَرْضِ أَوْ بِالحَائِطِ، ثُمَّ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، وَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَغَسَلَ رَأْسَهُ، ثُمَّ صَبَّ عَلَى جَسَدِهِ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ، فَنَاوَلْتُهُ خِرْقَةً، فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَلَمْ يُرِدْهَا)).[64]

في هذا الحديث نقف عند قول ميمونة –رضي الله عنها- وهي تصف غسله –عليه الصلاة والسلام- من الجنابة فتذكر أنها وضعت له ماءً ليغتسل به، إلا أنها لم تجيء بلفظ الماء بل عدلت نه إلى تسميته غسلاً وهو من باب المجاز (تسمية الشيء باعتبار ما يؤول إليه) فهي عبّرت عنه -أي الماء- بالغسل؛ لأنه لم تأتي به ولم تضعه له إلا ليغتسل منه - عليه الصلاة والسلام- وهذا أدّق في التعبير وألطف في التبليغ، ثم تذكر أنها رأته صبّ على كفّه الماء، لكنها كذلك لم تذكر الكفّ بل أطلقت لفظة اليد وهو من المجاز (من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء) وإنما ذكرت اليد، لكونها –أي اليد- قد اشتركت في الغسل، وهو معلوم عند السامع أن المراد باليد هنا الكف من خلا السياق إذ كيف يبدأ بيديه قبل وجهه ويديه كما كررت ذلك بعدها فقالت (وَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ) فلو كان المراد باليد كاملة مع الكف لما كان من تكرار اليد فائدة.

4- بلاغة أم سلمة (رضي الله عنها) من نماذج قولها:

جاء ((عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي مِنْ الْحَقِّ هَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ غُسْلٌ إِذَا احْتَلَمَتْ قَالَ نَعَمْ إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ فَضَحِكَتْ أُمُّ سَلَمَةَ فَقَالَتْ أَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِمَ شَبَهُ الْوَلَدِ)).[65]

في هذا الحديث نجد أم سلمة (رضي الله عنها) تستمع إلى المحاورة التي جرت (بين أم سليم ورسول الله) والتي استفتت فيها أم سليم المفتي الكريم والرسول الأمين عما يحدث للمرأة وما يصيبها مع غيرها النساء من الاحتلام عند النوم وجوابه لها –عليه الصلاة والسلام لكن نجدها قد قدّمت بين يدي سؤالها عبارة لا يخل السؤال منها إذا ما غابت عنها، لكنها –رضي الله عنها- لبلاغتها ورجاحة عقلها قدّمتها في صدر حديثها، لتدلل على مرادها، وتعلم المتلقي بمطلبها، لذلك هي قد ((قدمت هذا القول تمهيدًا لعذرها في ذكر ما يستحى منه، فإن كتمان هذا من عادتهن))[66]، يقول ابن المقفع في تفسيره للبلاغة والبليغ الذي نقله

63- سورة القصص: الآية: 7.
64- صحيح البخاري: 62/1، رقم الحديث (266).
65- صحيح البخاري: 310/15، رقم الحديث(6091).
66- كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري، محمد الخضر الشنقيطي: 145/4.

عنه الجاحظ: ((وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك)) [67]، ويقول الجاحظ(225ه) في تعليقه على كلام ابن المقفع، وبيانه لعباراته: ((لا خير في كلام لا يدل على معناك ولا يشير الى مغزاك والى العمود الذي اليه قصدت والغرض الذي اليه نزعت)). [68]

ثم وقفت –أي أم سلمة- متعجبة من هذا السؤال ومن الإجابة عنه مما دفعها إلى الاستفسار عن هذا السؤال وهو احتلام المرأة- لذا نجد من خلال هذا السياق أنّ السؤال الذي طرحته أم سلمه لم يكن مجرد استفسار مثلما هو الحال مع أم سليم وإنما نجد أنّ استفهامها قد خرج إلى التعجب من هذه الحالة والدهشة من هذه الواقعة يقول ابن حجر(852ه) في وقوفه على روايات هذا الحديث وتعليقه على استفهام (أم سلمة): ((.....بِأَنَّهَا تَبَسَّمَتْ تَعَجُّبًا وَغَطَّتْ وَجْهَهَا حَيَاءً)) . [69]

5- بلاغة زينب بنت جحش (رضي الله عنها) ومن نماذج قولها:

((عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»)). [70]

في هذا الحديث نقف عند قول أم المؤمنين زينب (رضي الله عنها) حينما حذّر من إصابة عموم الشر للعرب فاستعجبت من ذلك مستفهمةً عن حصول ذلك العقاب الذي سيعم كل القوم ((أي كيف يسلّط الله علينا هذه الشعوب المتوحشة فتهلكنا وتقضى علينا وفينا المؤمنون الصالحون)) [71]. فاستفهامها يوحي باستغرابها وتعجبها من كون ذلك العقاب لا يقتصر على المذنب وحده بل سيتعداه إلى سائر المجتمع، كما قال تعالى: ﴿ فح فخ فم قح قم كج كح كخ﴾ [72]

ثانياً: بلاغة نساء أخريات:

1- بلاغة فاطمة (رضي الله عنها) ومن نماذج قولها:

((عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ»، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ، مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ، مَأْوَاهْ يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، فَلَمَّا دُفِنَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التُّرَابَ)). [73]

نجد في هذا الحديث كيف عملت فاطمة –رضي الله عنها- لموت أبيها –عليه الصلاة والسلام- حين حضرته الوفاة فهي تتألم لكرب أبيها عند مجيء سكرات الموت فتنادي وآ كرب أباه وليس غرضها النداء بل التحسر والتوجع واظهار الشكوى [74] مما ألم بهم إذ أخذها الشوق له والحنين إليه فسلب مهجتها وذهبت سعادتها فغزتها جيوش الحزن والهموم [75]، يقول الشاعر: [76]

67- البيان والتبيين، الجاحظ: 116/1.
68- المصدر نفسه: 116/1.
69- فتح الباري: 389/1.
70- صحيح البخاري: 138/4، رقم الحديث (3346).
71- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم:181/4.
72- سورة الأنفال: الآية: 25.
73- صحيح البخاري: 15/6، رقم الحديث (4462).
74- ينظر: المفاتيح في شرح المصابيح ، الحسين بن محمود بن الحسن، مظهر الدين الزَّيْدَانيُّ: 276/6.
75- الشكوى في شعر فتيان الشاغوري (ت 615ه)، د. جرجيس عاكوب عبدالله، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مج: 16، ع: 2، 2021.

يقولون ثَكْلاً ومن لم يذقْ ... فراق الأحبة لم يثكل

لقد جرعتني ليالي الفراق ... كؤوساً أمرّ من الحنظل

فهي وإن لم تشتكي وجعاً في جسدها إلا أن ما أصاب أباها قد أحزنها وآلمها وهذا مصداقاً لقوله –عليه الصلاة والسلام-: ((تَرَى المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى)).[77]

ثم لما قُبض أباها أخذت تتفجع وتندبه وتنعاه مكررةً استعمال حرف النداء يا أبتاه للدلالة على عظم المصاب والتنويه بشأن المتوفى وهو رسول –عليه الصلاة والسلام- ، وعندما دفن أخذت تستفهم من أنس –رضي الله عنه- كيف طاب نفوسهم وطاوعتهم على أن يحثوا التراب على رسول الله ولو وقفنا على هذا الاستفهام لألفينا غرضها لم يكن إرادة الجواب بل الاستنكار وتعظيم الأمر إذ كيف حثوا عليه التراب وهو إمامهم ورسولهم الذي دلهم على كلّ خير وحذّرهم من كلّ شر وما هو عليه من عظم القدر ورفع المنزلة عند أصحابه، لذلك لم نجد أنساً –رضي الله عنه- يجيبها على سؤالها أو يردّ على لعلمه بمضمون استفسارها ومعرفته بمقصود استفهامها ولِما أصابه ما أصابها من الحزن والألم لفرق رسول الله يقول ابن حجر (852ه): ((وَأَشَارَتْ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِذَلِكَ إِلَى عِتَابِهِمْ عَلَى إِقْدَامِهِمْ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ مَا عَرَفَتْهُ مِنْهُمْ مِنْ رِقَّةِ قُلُوبِهِمْ عَلَيْهِ لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِمْ لَهُ وَسَكَتَ أَنَسٌ عَنْ جَوَابِهَا رِعَايَةً لَهَا وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ لَمْ تَطِبْ أَنْفُسُنَا بِذَلِكَ إِلَّا أَنَّا قَهَرْنَاهَا عَلَى فِعْلِهِ امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ)) .[78]

2- بلاغة أسماء (رضي الله عنها) ومن نماذجه:

عن((عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى أَسْمَاءَ عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّهَا نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ عِنْدَ المُزْدَلِفَةِ، فَقَامَتْ تُصَلِّي، فَصَلَّتْ سَاعَةً ثُمَّ قَالَتْ: «يَا بُنَيَّ، هَلْ غَابَ القَمَرُ؟»، قُلْتُ: لاَ، فَصَلَّتْ سَاعَةً ثُمَّ قَالَتْ: «يَا بُنَيَّ هَلْ غَابَ القَمَرُ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَتْ: «فَارْتَحِلُوا»، فَارْتَحَلْنَا وَمَضَيْنَا، حَتَّى رَمَتِ الجَمْرَةَ، ثُمَّ رَجَعَتْ فَصَلَّتِ الصُّبْحَ فِي مَنْزِلِهَا، فَقُلْتُ لَهَا: يَا هَنْتَاهُ مَا أُرَانَا إِلَّا قَدْ غَلَّسْنَا، قَالَتْ: «يَا بُنَيَّ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِلظُّعُنِ)).[79]

في هذا الحديث نجد أسماء – رضي الله عنها- قد قامت ببعض أعمال الحج على غير ما اشتهر عند غيرها من الناس في اندفاعها وإفاضتها مبكرة من مزدلفة إلى منى فلما سألها مولاها (عبدالله) عن ذلك فنادته يا بني -قبل إجابته- مع قربها منه ولعلها إنما أنزلته نزل المخاطب لتجذب انتباهه ويرعها سمعه كي تبيّن له جواز ما استغرب فعله وهو الإفاضة في الغلس، فبيّنت له إنما حصل لم يكن محض اجتهادها ولا فعلته من تلقاء نفسها بل رخّص –ﷺ- لها ولأمثالها من النساء الضعفاء ولكنها لم تقل أذن للنساء بل ذكرت المحل وهو الظعينة (الهودج)وأرادت به ما يحلّ به وهي المرأة وهذا الأسلوب الذي سلكته في التعبير لا يخفى مراده عند السامع ولا يغمض فهمه لدى المخاطب؛ لأنه قد شاع استعماله وانتشر تناقله بينهم فهم يطلقون الظعينة ويريدون ما يحلّ بها وهي المرأة كما في قول الشاعر:[80]

ظَعَائِنَ مِنْ بَنِي جُشَمِ بِنْ بِكْرٍ خَلَطْنَ بِمِيْسَمٍ حَسَباً وَدِيْنَا

3- بلاغة هند (رضي الله عنها) ومن نماذجه:

---

[76] البيت في كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) وقد نسبه أبو الفتح إلى جعفر بن نصر الخلدي. ينظر: المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي : 311/1.

[77]- صحيح البخاري: 10/8، رقم الحديث (6011).

[78]- فتح الباري: 149/8.

[79]- صحيح البخاري: 165/2، رقم الحديث (1679).

[80]- ديوان عمرو بن كلثوم: 87.

عن ((عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: " جَاءَتْ هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ أَهْلِ خِبَاءٍ [81] أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ، ثُمَّ مَا أَصْبَحَ اليَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَهْلُ خِبَاءٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزُّوا مِنْ أَهْلِ خِبَائِكَ، قَالَ: «وَأَيْضًا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ، فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُطْعِمَ مِنَ الَّذِي لَهُ عِيَالَنَا؟ قَالَ: «لاَ أُرَاهُ إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ»)). [82]

فهندٌ هنا تتحدّث عما كانت عليه قبل الإسلام من بغضها لرسول الله وما آل إليها إيمانها وما مال إليه قلبها من حب له –عليه الصلاة والسلام- بعد ذلك، إلا أنها لم تقل إني كنت أبغضك أو بل نسبت البغض والحب للخيمة والمسكن ومرادها أهل الخباء وهو رسول الله وصحبه وهذا ما يسمى عند أهل البلاغة بالكناية عن النسبة[83]، وهو مما يدل على فصاحتها إذ في هذا التعبير من الأدب والحسن ما لا يخفى على ذوي الألباب الحليمة وذوي العقول غير السقيمة قال القاضي عياض (544ه): ((أرادت به نفسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأنه أعلم، فكنّت عنه بهذا، أو أكبرته عن مخاطبته وتعيينه بذلك لما فيه. وقد يحتمل أن تريد بأهل الخباء أهل بيته. والخباء يعبر عنه عن مسكن الرجل وداره)) [84]، إذ أن نسبة الحب والبغض إلى خبائه الشريف يقتضي نسبتها إليه ((لأن الشيء إذا أثبت في مكان الرجل وحيزه، فقد أثبت له؛ وذلك لاستحالة قيام الوصف بنفسه ووجوب قيامه بموصوف صالح للاتصاف به))[85]. وهذ الأسلوب سائق في كلام العرب وجارٍ على ألسنة شعرائها وفصحائها، يقول شاعرهم: [86]

تَحُلُّ، بِمَنْجاةٍ مِنَ اللَّوْمِ، بَيْتَها إذا ما بُيُوتٌ بالمَذَمَّةِ حُلَّتِ

ثم بعد هذا العرض الذي قدّمته بين يديها والثناء الذي تفوّهت به شفتيها، نجدها تستفتيه عن حكم أخذها المال من زوجها وذلك بقولها (إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ، فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُطْعِمَ مِنَ الَّذِي لَهُ عِيَالَنَا؟) وحين عند هذه العبارات نجد السائلة وهي هند لم تستفسر عن أخذها المال من زوجها بل سبقت بجملة خبرية وهو إخبارها عن شح زوجها ولم يكن مرادها من هذه العبارة مجرد الإخبار عن بخله بل هدفها الشكوى وإظهار الحاجة لدى المستفتي، كما نبّه إلى ذلك بعض شراح الحديث في كونها إخبارها لم يكن غرضه التشهير ببخل زوجها بل ((وَإِنَّمَا وَصَفَتْ مَعَهَا فَإِنَّهُ كَانَ يُقَتِّرُ عَلَيْهَا، وَعَلَى أَوْلَادِهَا كَمَا قَالَتْ لَا يُعْطِينِي وَبَنِي مَا يَكْفِينِي، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى الْبُخْلِ مُطْلَقًا فَقَدْ يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ هَذَا مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ لِأَنَّهُ يَرَى غَيْرَهُمْ أَحْوَجَ مِنْهُمْ، وَأَوْلَى لِيُعْطِيَ غَيْرَهُمْ)) [87]. وهذا من بديع حكمتها وجميل تقديمها فهي قد أخبرت المتلقي قبل أن يسأل عن سبب أخذها من مال زوجها ومن طعام بعلها.

4- بلاغة أم الدرداء (رضي الله عنها)، ومن نماذجه:

عن ((عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: آخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ [88] مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا،

81- قال الخليل: ((والخِباءُ من بيوت الأعراب، جمعه: أخبية)). كتاب العين: 315/4.
82- صحيح البخاري: 40/5، رقم الحديث (3825).
83- ينظر: جواهر البلاغة: 288.
84- إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي: 567/5.
85- البلاغة 1 - البيان والبديع، مناهج جامعة المدينة العالمية: 265.
86- ديوان الشنفرى: 31.
87- طرح التثريب في شرح التقريب، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي: 172/7.
88- قال ابن حجر في ترجمتها: ((وَأُمُّ الدَّرْدَاءِ هَذِهِ هِيَ خَيْرَةُ بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ وَسُكُونِ التَّحْتَانِيَّةِ بِنْتُ أَبِي حَدْرَدٍ الْأَسْلَمِيَّةُ صَحَابِيَّةٌ بِنْتُ صَحَابِيٍّ)). فتح الباري: 210/4.

فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»)). [89]

في هذا الحديث نقف عند قول أم الدرداء في إجابتها عن سؤال سلمان –رضي الله عنه- الذي استفسر به عن سبب ابتذالها وعدم تزيّنها فأشارت إليه أن سبب ابتذالها لم يكن لانشغالها في بيتها أو حزنها على فراق قريب لها بل إنما كان إهمالها لنفسها ورثها لهيئتها هو بسبب زوجها الذي انشغل عنها بالعبادة ولم يتفرق لمعاشرتها وجماعها فضلاً عن مداعبتها وإعطائها حقّها من التلطف والتقبيل الذي كان تتمتّع بها مثيلاتها من النساء ذوات الأزواج الكرام وأصحاب النهى والإحسان إلا أنها لعفتها وكريم حيائها لم نجد تصرح بهذا السبب أو تفصح عن تلك العلة بل اكتفت بالإشارة بدلاً من صريح العبارة ومالت إلى التلميح مكان التصريح، يقول الكرماني (ت786هـ): ((وعممت بلفظ (في الدنيا) للاستحياء من أن تصرح بعدم حاجته إلى مباشرتها))[90]، وهي لم تخل بالفصاحة أو افتقدت إلى البلاغة بل في عبارته هذه كل البلاغة؛ لأنها أدركت مقصودها ونالت مطلوبها، فهي لا تخاطب بليه أو تتحاور مع شخص غير نبيه، لذلك نجد سلمان –رضي الله عنها- قد وعى جوابها واستجاب لشكواها حتّى وجّه زوجها إلى تلك النصائح العظيمة وأرشده إلى المبادئ الكريمة.

5- بلاغة امرأة قصَّ خبرها رسول الله (ﷺ):

عن ((ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه و سلم قال (خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر فدخلوا في غار في جبل فانحطت عليهم صخرة قال فقال بعضهم لبعض ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه فقال أحدهم اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران فكنت أخرج فأرعى ثم أجيء فأحلب فأجيء بالحلاب فآتي أبواي فيشربان ثم أسقي الصبية وأهلي وامرأتي فاحتبست ليلة فجئت فإذا هما نائمان قال فكرهت أن أوقظهما والصبية يتضاغون عند رجلي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى طلع الفجر اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء قال ففرج عنهم وقال الآخر اللهم إن كنت تعلم أني أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء فقالت لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار فسعيت حتى جمعتها فلما قعدت بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقمت وتركتها فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة قال ففرج عنهم الثلثين وقال الآخر اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيرا بفرق من ذرة فأعطيته وأبى ذلك أن يأخذ فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته حتى اشتريت منه بقرا وراعيها ثم جاء فقال يا عبد الله أعطيني حقي فقلت انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك فقال أتستهزئ بي ؟ قال فقلت ما أستهزئ بك ولكنها لك اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فكشف عنهم)). [91]

في هذا الحديث نقف عند عبارة تلك المرأة التي قالت -للذي راودها عن نفسها- (اتق الله ولا تفض الخاتم) إذ نجد في هذه الجملة أسلوب بياني بديع عبّرت عما يستحيى من التصريح به بالمجاز، ونأت بنفسها عن التوضيح عنه بالاستعارة وهو عدم افضائه إليها واستحلال فرجها بغير حق فشبّهت عدم دخول ذكره بفرجها بغير حقه بمن ادخل المفتاح في الخاتم وفضّه بغير حقه بجامع ولوج الأمر في حقه وإدخال الشيء في غير محله لذا فهي استعارة (استعارة تصريحية) وليست كناية كما ذكر ذلك أغلب شرّح الحديث [92]، وإنما صارت استعارة؛ لأننا لا يمكن أن نحملها إلا على المجاز وهو المعنى الثاني المتستّر خلف جدار العبارة ولا يمكننا من حملها على الحقيقة والمجاز كما هو شرط الكناية [93]، بل من غير

89- صحيح البخاري: 38/3، رقم الحديث (1968).
90- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: 12/22.
91- صحيح البخاري: 79/3، رقم الحديث (2215).
92- ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي: 65/7، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: 67/10، فتح الباري: ، وعمدة القاري: 25/12.
93- ينظر: المثل السائر : 2/ 182.

المسلّم به أن نلصقها بالكناية وهي لا تحمل غير المعنى المجازي، يقول صاحب (الكوكب الوّهاج): ((قيل: إن الخاتم كناية عن عذرتها وكأنها كانت بكرًا، وَكَنَتْ عن الإفضاء بكسر الخاتم، وفيه نظر لما قدمنا من حديث النُّعمان بن بشير أنها كانت ذات زوج وعليه فيمكن تفسير قولها بأن عليها خاتم زوجها ولا يحل لأحد غيره أن يفضها وليس ذلك كناية عن العذرة بل عن انتهاك حرمة الزوج)).[94]

[94]- الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم: 176/25.

المصادر والمراجع:

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري أبو العباس شهاب الدين(ت923ه)، المطبعة الكبرى الأميرية، ط7، مصر، (1323ه).
- الاستذكار، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي(ت463ه)، تح: سالم محمد عطا، و محمد علي معوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، (1421 ه– 2000م).
- أسرار البلاغة في علم البيان، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار(ت471ه)، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت، 1422 هـ - 2001 م).
- البلاغة 1- البيان والبديع، مناهج جامعة المدينة العالمية، (د، ت).
- البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، فضل حسن عبّاس، دار الفرقان، الاردن ط: 4، 1417ه.
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255 هـ)،تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط: 7، 1418 هـ، 1988 م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور(ت1393ه)، دار سحنون، تونس، (1997).
- التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (ت: 1182هـ)،تح: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة: الأولى، 1432 هـ - 2011 م.
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبو منصور(ت370ه)، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، (2001م).
- ديوان الخنساء، تماضر بنت عمرو السلمية والمعروفة بـ الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط: 2، (1425 - 2004 م).
- ديوان الشنفرى، عمرو بن مالك نحو (70 ق هـ)، تح: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، المصدر: الشاملة الذهبية.
- ديوان طرفة بن العبد، طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي (المتوفى: 564 م)، تح: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط: 3، 1423 هـ ،2002 م.
- ديوان عمرو بن كلثوم، عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب، أبو الأسود، من بني تغلب (ت 39 ق. هـ / 584 م)، جمعه وحققه وشرحه: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط: 3، 1416 - 1996 م.
- زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (المتوفى: 1102هـ) تح: د محمد حجي، د محمد الأخضر، الشركة الجديدة - دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، ط: 1، 1401 هـ - 1981 م.
- سنن ابن ماجة، ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني(ت273ه)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، (د، ت).
- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (743هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)،ط: 1، 1417 هـ - 1997 م.
- صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري(ت256ه)، تح: محمد بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، (1422ه).
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري(ت261ه)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، (1422ه).
- طرح التثريب في شرح التقريب، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: 806 هـ)، تح: عبد القادر محمد علي، دار الكتب العلمية، 2000 م، بيروت.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني (ت855ه) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د، ت).

الخاتمة:

- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت170ه)، تح: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د، ت).
- غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: 224هـ)تح: د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، ط: 1، 1384 هـ - 1964 م.
- غريب الحديث، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، تح: الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، ط: 1، 1405ه
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني(ت852ه)، تح: عبد العزيز بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت،(1379ه).
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله(ت538ه) دار الكتاب العربي، بيروت،(1407هـ).
- كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري، محمَّد الخَضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي(ت1354هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1415،1هـ - 1995م.
- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني(ت786ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط1،(1356هـ - 1937م)، ط2، (1401هـ - 1981م).
- الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (المسمَّى: الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي، مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد علي مهدي، دار المنهاج - دار طوق النجاة، ط: 1، 1430 هـ - 2009 م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير(ت637ه)، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، (د، ت).
- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (المتوفى: 1414هـ)، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند، ط: 3 - 1404 هـ، 1984 م.
- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح، تح: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: 2، 1986.
- المصباح في المعاني والبيان والبديع، بدر الدين بن مالك(ت686ه)، تح: د. حنى عبدالجليل يوسف، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز.
- المفاتيح في شرح المصابيح، الحسين بن محمود بن الحسن، مظهر الدين الزَّيْدَانيُّ الكوفي الضَّريرُ الشِّيرازيُّ الحَنَفيُّ المشهورُ بالمُظْهِري (ت: 727 هـ)، تح: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية - وزارة الأوقاف الكويتية، ط:1/ 1433هـ - 2012 م.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم أبو العباس، أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي(ت656ه)، تح: محيي الدين ديب ميستو، أحمد محمد السيد، يوسف علي بديوي، و محمود إبراهيم بزال، (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، ط1، (1417 هـ - 1996 م).
- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، عني بتصحيحه ونشره: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية، 1410 هـ - 1990 م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف(ت676ه)، دار إحياء التراث العربي، ط2، بيروت، (1392ه).
- النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، محمد الطاهر ابن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع،دار السلام للطباعة والنشر، ط: 1، 1428 هـ - 2007 م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر،مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ)، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م، تح: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله تنال المكرمات والصلاة والسلام على رسوله الذي خُتمت بنبوته الرسلات وعمت رحمته جميع المخلوقات وبعد هذه الرحلة مع البحث خرج البحث بمجموعة من النتائج وتوصل إلى جملة من الفوائد أبرزها:

- أهمية تلك الأحاديث التي وقفنا عليها واستخرجت منها تلك الدرر وقدّمت تلك الغرر كونها متأثرة بكلام خير البشر ومقتبسة من أحاديث من فاق حسنه القمر، وقد وجد البحث في تلك الأحاديث أساليب بيانية وفنون بلاغية اشتملت على علوم البلاغة كلها من بيان ومعاني وبديع مما يدل على مكانة تلك النصوص ومنزلتها البلاغية في لغة العرب.

- اتخذ أولئك النسوة من البلاغة متكئاً وسبيلاً ينفذن من خلاله إلى التعبير عن مرادهن والوصول إلى قصدهن وغرضهن ولا سيما فن الكناية كونها الستار التي تلجأ إليه المرأة في التعبير عن مدلولها والوسيلة التي تلجأ إليه عند خشيتها وحيائها فيما يستحيي من ذكره والإفصاح عما يترفع من ورود لفظه أمام الرجال.
- لقد تفاوتت تلك النصوص البيانية في كثرة ورودها وقلتها على ألسنة تلك النسوة وقد احتل القسم الأول منها حديث عائشة –رضي الله عنها- ولا عجب من ذلك فالبيئة التي نشأت فيها واللغة البيانية التي كانت تصدر عن لسانها مكّنتها من اعتلا تلك المنزلة والبلوغ لتلك المرتبة.